

الصراع على رئاسة القراية من يعرف أكثر: الجيل الجديد أم الجيل القديم؟ بقلم جوزيف يزيك

يعتبر الجيل الجديد من المرتلين أنه يجيد الموسيقى البيزنطية أكثر من الجيل القديم الذي يرتل علي السمع. ويعتبر الجيل القديم أن الجيل الجديد "يتعدى على المصلحة" وأنه لم يكن قد ولد حتى على أيام عز الموسيقى البيزنطية في كاتدرائية مار جرجرجس في بيروت والكاتدرائية المريمية في الشام وغيرها ...
ويطرح السؤال: من يجب أن يربح المعركة ويتصدّر على القراية؟

"على كل قراية شيطان!"؛ لطالما سمعتُ هذا القول منذ حدثتي وكنتُ أستغرب، إذ كيف يمكن للمرثّل أن يجمع في نفسه التناقض بين تسبيح الله وعداوة مع أخيه الذي يرتل معه على نفس القراية؟؟؟
مما لا شكّ فيه أنّ الترتيل، ولو أنه في المبدأ تسبيح وصلاة، إلا أنه مناسبة تكثّر فيها التجارب. فالترتيل بطبيعته فيه عرض، على الأقلّ، لتقنيّات المرثّل الموسيقية لحمل الناس على الصلاة!

في هذه الأجواء، يتسلّل الشيطان ويهمس في أذن المرثّل الشاب، يقول:
"يجب أن تُسكّيت المرثّل "الختیار"، فهو لا يلتزم بقراءة النوتة ويطلق العنان لنفسه مرتلاً ما يتذكّره من ألحان غير ميكنوية وملوّناً في الجمل الموسيقية تلوينات لا تجدها في كتب الموسيقى... والأهم، أن هذا كله يتعارض مع المحافظة على الموسيقى البيزنطية التراثية ويشتت المصلّين. إذًا، يجب إسكات "الختيار"، وربما طرده عن القراية، حتى تصان مصلحة الكنيسة!!!"

يتحمّس المرثّل الشاب، وقد شعر بأنّ خلاص المصلّين بات من مسؤوليته، ويبدأ بالتخطيط من أجل ثورة الحقّ على القراية.

يغتنب الشيطان هنا، وقد بلغ ضلّته، فيكمل الطريق ليلبّغ رسالة أخرى إلى المرثّل القديم، "الختيار"، الواقف على القراية نفسها، يقول:

"يا لهذا الجيل الجديد المتكبر الذي يظنّ أنه يعرف كل شيء وهو لم يبدأ بالترتيل سوى البارحة! تجد هؤلاء الشباب يعلمون بعضهم الموسيقى البيزنطية ولكن من منهم هو تلميذ أحد المرتلين الكبار القدماء؟ نحن "الختيارية" نرتل كما كنا نسمع في الكاتدرائيات، يوم كان يأتي مرتلو القسطنطينية وتصدح أصواتهم لتملأ المساحات الكبيرة... يتطلب الترتيل البيزنطي أصواتًا رخيمة ورجولية ولا يناسب أصوات هؤلاء الأطفال!"

يفتتح "الختيار" هو الآخر، فيحصن مراكزه على القراية تحسبًا لأيّ اختراق شبابيّ قد يهدّد تقاليد الكنيسة.

يبدأ عندها الصراع على رئاسة القراية فيصير الشاب يُعامل "الختيار" كأنه عدوٌّ ويرفض كلّ ما يصدر عنه ويشوّه صورته بين الناس ممّا يزيد رفض "الختيار" له. هذا، ويصير المرثّل الكبير بدوره، يعليّ صوته أكثر مشوّهًا أجواء الصلاة وينتّع رافضًا الشاب

أكثر فيحبطه مُجهّزاً كلّ حماسه للخدمة، وتنتهي الكنيسة بمرثلين يملأهما التكبر يتحاربان على القرآية فيشتنان المصلين (رغم أنّ هدفهما كان بالأصل شريعاً).

هذه القصة نفسها تتكرّر كثيراً وقد يتغيّر فيها شيئاً إذا ما أخذ الشاب و"الختيار"، بعين الاعتبار بعضاً من هذه الوقائع:

أولاً: بالنسبة للمرثّل الشاب:

لن أتكلّم عن اللياقة واحترام المسنّين لأنّي لستُ بمجال وعظ، ولكن اعلم يا أخي المرثّل الشاب ما يلي:

يعتبر بعض الموسيقيين (في الموسيقى عامّة) أنه كان لاختراع الكتابة الموسيقية نتائج وخيمة بقدر ما كان لها نتائج مفيدة. فقد أدّت الدقّة في الكتابة الموسيقية الى تحديد حرية المؤدّين وابداعهم.¹

ما قاله سقراط في الماضي بالنسبة لاختراع الابدجية يمكن ان يطبّق ايضاً على اختراع الكتابة الموسيقية:

"سيؤدي هذا الاختراع [...] الى النسيان في نفوس الطلاب لانهم لن يستعملوا فيما بعد ذاكرتهم، سيتقون بالاحرف المكتوبة التي هي خارجها ولن يتذكروا انفسهم. الخصوصية التي اكتشفتموها هي مساعدة للتذكر وليس للذاكرة، ولا تعطي [...] سوى هيئة الحقيقة. سيسمعون كثيراً ولن يتعلموا شيئاً؛ سيعطون انطباعاً بأنهم يعرفون الكثير ولن يعرفوا في معظم الاحيان شيئاً؛ ستكون رفقتهم مضجرة ومتعبة لانهم يبدون حكماء وهم ليسوا كذلك."²

إلى ما تقدّم، أضف ما يلي بالنسبة للموسيقى البيزنطية بشكل خاص:

1- النوتة الموسيقية:

ليست الموسيقى الكنسية البيزنطية مجرد قراءة للنوتة، فالنوتة حديثة نسبياً ومتغيّرة بينما الموسيقى ثابتة. إذا، العبرة ليست في من يعرف قراءة النوتة، بل في من يتمكن في الإيفوس البيزنطيّ technique. في الأصل كانت الموسيقى ومن بعدها ظهرت النوتة كمساعدة للذاكرة فقط aide mémoire وراحت ترتقي سلّم الدقّة مع الوقت. النوتة البيزنطية التي تتعلمها في مدارس الموسيقى اليوم هي النوتة التي وُضعت في إصلاح السنّة 1814، أي ليس منذ زمن بعيد أبداً، وبالتالي، إذا تغيّرت هذه النوتة من جديد، لن يبقى لك سوى ما حفظته.

¹ Willson-Dickson, Andrew, *Histoire de la musique Chrétienne*, ed. française, BREPOLS 1994, pp. 48
² H. Cole, *Sounds and Signs*, 1974, p.149

أكثر من ذلك، كثيراً ما تُصادف مرتلين تعلموا قراءة النوتة على كبر
فتردى مستوى ترتيلهم، إذ أسرت قراءة النوتة الحرفية إبداعهم.

2- التلمذة:

هل فكرت يوماً أنه لدى "الختیار" أمر تفتقد إليه أنت؟؟!! لماذا لا تفكر بأن
تستفيد منه بدلاً من أن ترفض كل ما لديه. قسم كبير من "التمويجات" التي يؤدونها،
أو "التفريجات" التي يخرج فيها عمّا هو مكتوب، هو صحيح ويتبع قواعد محدّدة
في الموسيقى البيزنطية هي قواعد "الخيرونوميًا"، أي علامات حركة اليد، ولو أنّ
"الختیار" نفسه لا يعرف ذلك إلا أنه حفظها بهذا الشكل من الذين قبله.
قد يكون ترتيل "الختیار" رديئاً حتى، وقد يستعمل كثيراً من الأمور
الغريبة عن الموسيقى البيزنطية أو التي لا تستسيغها أذنك... إلا أنّ المهمّ هو أنه
يجب ألا تدع ذلك يعمي بصرك عن الأشياء الجيدة في ترتيله فابحث عن الذهب
بين حصى التهر ...

3-

احتمال أن تكون الموسيقى البيزنطية التي نعرفها كلها غير صحيحة:
هل تعلم أنّ باحثين غربيين أقاموا دراسات على الموسيقى البيزنطية
واستنتجوا أنّ الموسيقى التي يؤدونها الأرثوذكس اليوم ليست ببيزنطية. يرفض
الموسيقيون الأرثوذكسيون هذه النتيجة وهم يجتهدون على نقضها علمياً³، ولكن،
ماذا لو كان الباحثون الغربيون على حق؟ وبالتالي يكون ما تتفاخر بأنك تعرفه
أكثر من "الختیار" هو مشكوك بصحته أصلاً؟

إذاً، إنتهبه لئلا تستكبر خاصة أنك فعلاً لا تعرف الكثير عن الموسيقى البيزنطية،
ولأنّ هذا المرتل "الختیار" لديه الكثير ممّا ليس لديك، فاجتهد أن تراقب ترتيله دائماً
وتحاول أن تستفيد منه قدر استطاعتك.

ثانياً: بالنسبة للمرتل المتقدم في السن:

³ Stathis, Gregorios, *An Analysis of the Sticheron Tòn ílion krúpsanta*, in
Studies in Eastern Chant IV, edited by Miloš Velimirović, St. Vladimir's
Seminary Press, New York 1979

لن أتكلّم هنا أيضاً عن حماس الثّباب الزّائد أحياناً وعن ضرورة استيعابهم من قبل الأكبر سنّاً حتّى لا يفقدوا حماسهم للخدمة، فهذا أيضاً من باب الوعظ ولا يدخل في إطار هذا المقال. ولكن اعلم ما يلي:

أهميّة قراءة النّوّة:

-1

من البديهيّ أنّ قراءة النّوّة مهمّة جدّاً في الجوقة، فهي عمليّة أكثر من الحفظ وتساعد كثيراً في تأليف الجوق في الرّعايا، ما يجذب المؤمنين إلى الخدم الليتورجية ويساعدهم على الصّلاة وتذوّق حلاوة الربّ. عندما اخترع الرّاهب⁴ Guy d'Arezzo الكتابة الموسيقية الغربية أذهل كلّ من تعرّف على اختراعه إذ كيف يُمكن أن ترتل مجموعة من الأشخاص لحناً بانسجام مع أنّ المرتلين لم يسمعوا اللحن قطّ في حياتهم؟!!! الفضل طبعاً للكتابة الموسيقية. أضف إلى ذلك أنّه للكتابة دورٌ كبير في المحافظة على الموسيقى، كما في تطويرها على أسس علمية، إذ ساعدت الكتابة الموسيقية كثيراً في تطوير العلوم الموسيقية.

الإتقان في قراءة النّوّة:

-2

تساعد قراءة النّوّة الموسيقية على الدقّة والإتقان في الترتيل في إطار الجوق. فتؤدّي تالياً إلى تجميل الخدم الليتورجية التي تقدّمها على مذبح الربّ. إلا أنّ هذا لا يعني أنّ الدقّة يجب أن تلغي الارتجال، فهذا الأخير أساسيّ في الموسيقى البيزنطية... بل يجب أن يتعايش الارتجال جنباً إلى جنب مع الموسيقى التحليلية المتطورة بحيث يكون لكلّ منهما دوره وموقعه في الليتورجيا.

العبرة

تكمّن العبرة إذاً، في أن يفتنع كلّ واحدٍ من باب المنطق على الأقلّ، إن لم يكن من باب التّواضع، أنّه لدى الآخر، أيّاً يكن، شيئاً جيّداً مفيداً للكنيسة... ويكون الحلّ الأفضل بتكامل الأدوار وليس في انتصار جيل على آخر.

للأسف الشديد، نصادف هذا الصّراع أحياناً بين إخوة من نفس الجيل. وهنا يُطرح السؤال:

لماذا نعمل على إلغاء الآخر الذي يختلف عنّا؟ من قال أنّ هذه الاختلافات هي سلبية وليست مصدر قوّة وغنى لنا وللكنيسة؟

⁴ . ولد Guido في Arrezzo حوالي نهاية القرن العاشر، ثمّ ترهب في دير Pompose في إيطاليا حيث اخترع الكتابة الموسيقية الغربية.

كلّ شيء يكمن في طريقة مقارنة هذه الاختلافات: فبدلاً من أن نستسلم لأهوائنا ونستكبر رافضين الآخر ومحولّين "الاختلافات" إلى "خلافات" تضعف الكنيسة، حريّ بنا أن نبحث بروح إيجابية عن مواضع القوّة لدى الآخر لنستفيد منها ونوزّع الأدوار بيننا بروح محبّة وتعاونٍ لنكملّ بعضنا بما فيه خير وقوّة الكنيسة.

أختم أخيراً بقول للقديس باسيليوس الكبير عن الترتيل:

"يُثير المزمور الصّداقات، يجمع المتفرّقين ويصالح المتحاربين. من يستطيع أن يُبقي على نظرة عدائيّة تجاه من يشاركه صلاة واحدة لله؟ بهذه الطريقة يمنح الترتيل أكبر النعم، المحبّة [...]. إذ يجمع الأشخاص بانسجام الجوق."⁵

⁵ J. McKinnon. *Music in Early Christian Literature*. Cambridge, 1987, pp. 65-66